فلسفة هيراقليطس

أولا: من هو هيراقليطس؟

يعد هذا المفكر واحداً من أهم المفكرين اليونان قبل سقراط، ومن أكثرهم تأثيرا في تاريخ الفكر اليوناني والأوربي. وقد عاش بين 535 و 475 ق.م ومن المؤكد أنه وصل الى نضوجه أو ازدهاره حوالي عام 511ق-م. وقد كان من إفسوس، التي وقعت بدورها كباقي مدن أيونيا تحت سيادة الفرس، وكانت قد احتلت المرتبة الأولى بين موانى، أيونيا بعد تحطيم الفرس لميناء " ملطيا " سنة 494 ق.م. وهكذا فإن هيراقليطس أيونى هو الآخر، ولا شك أنه عرف كتابات الطبيعيين الأيونيين، وعرف كذلك فيثاغورس، وهو يهاجمه كما سنرى. وكان هيراقليطس ينتمى الى الطبقة الأرستقراطية، ومن هنا جاء عداؤه لنظام حكم الطغاة، وللنظام الديمقراطى على وجه الخصوص كما سنرى بعد قليل. وقد كان عصر هيراقليطس عصر حرب دائمة بين الفرس واليونان، وعصر اضطرابات سياسية داخل المدن اليونانية نفسها ولنلاحظ أن أهم مدن اليونان في القرن السادس كانت المدن الأيونية على حين كانت أثينا واسبرطة وقتذاك كالقرى الكبيرة، ولن تظهر قوتهما إلا بعد تحطيم قوة المدن الأيونية وبعد الحروب مع الفرس وانهزام هؤلاء في معركة ماراتون سنة 490، ومعركة سالاميس ولعل هذا أثر على فلسفته التي تدور حول فكرة الصراع الدائم وفكرة التضاد.

والقارئ للشذرات الباقية من كتابه " في الطبيعة " لا يملك إلا أن يلاحظ احتقار هيراقليطس للعامة وللمجموع بصفة عامة. وقد يكون سبب هذا سياسيا، فهو كما قلنا ينتمي الى الحزب الأرستقراطي، فهو إذن ضد حكم عامة الشعب أي النظام الديمقراطي، وهناك نص واضح من كتابه في الطبيعة يقول فيه: **"يحسن بأهل الفيسوس أن يشنقوا أنفسهم وكل رجل بالغ منهم وأن يتنازلوا عن مدينتهم للفتيان، لأنهم نفوا هر مودورس**

أفضل رجال المدينة قائلين: "لن نستبقى أحدا من الفضلاء، فان وجد فليذهب الى بلد آخر وبين آخرين." وهر مودورس هذا كان صديقا لهيراقليطس وكان مشرعا كبيرا، ولكن يبدو أن النظام الديمقراطي أزاحه من الحكومة ونقاء، وربما كان ذلك بعد هزيمة الفرس، فيكون من المحتمل في هذه الحالة أن صديق هيراقليطس كان متعاونا مع الفرس، ويقال إن هيراقليطس تلقى دعوة من داريوس " ملك الفرس ولكنه رفضها، لأنه لا يحب المظاهر".

لكن احتقاره للعامة والمجموع قد تكون له دوافع أخرى ترجع اما الى شخص هيراقليطس نفسه أو الى آرائه الفلسفية وذلك أننا نستطيع أن نلمح من النصوص الباقية أنه كان متعاليا بل متكبرا، حتى أنه كان يؤثر العزلة فترك منصبا دينيا كان له بالوراثة وأعطاء لأخيه ومن جهة أخرى فانه كان محتقرا ليس فقط للعامة بل وكذلك لبعض المفكرين والشعراء السابقين عليه فهو يوصى بطرد هوميروس من سجل الشعراء وبأن يضرب، لماذا؟ ربما كان السبب هو نفسه الذي من أجله هاجم هيراقليطس هزيود واكسينوفان وفيثاغورس: ألا وهو أن كثرة المعارف ليست الحكمة، وهو يقول: "كثرة الحفظ لا تعلم الحكمة ". وهو قد سبق أفلاطون الى الهجوم على هوميروس الذي كان القائد العقلي للعامة ودليل التربية اليونانية. أما الحكمة الحقيقية فانه يشعر أنه هو الذي يملكها وكأنما أوحى اليه بها، ولما كان كل البشر لا يستطيعون الوصول الى هذه المرتبة الا قلة قليلة منهم، لهذا فإن هيراقليطس لا يكشف الحجاب عن الحقيقة، ولكنه كعرافة أبوللون يشير اليها فقط.

ثانيا: المفاهيم المفتاحية لفلسفة هيراقليطس

إن المفهوم الجوهري الذي قامت عليه فلسفة هيراقليطس هو مفهوم اللوغوس ويمكن القول بأن المعنى الأساسي للوجوس عند هيراقليطس هو " القانون العام ". وهو الذي تجده مثلا في نص شذراته في الطبيعة الذي يقول فيه **"انه من الحكمة ألا تنصتوا الى أنا بل الى اللوجوس**

وأن تعترفوا أن كل الأشياء واحدة ". اذن فاللوجوس الأساسي أو الحقيقة الأساسية هي أن الأشياء ليست متعددة ومنفصلة بعضها عن البعض بل هي متحدة بل وواحدة فهذا اللوجوس قانون عام يسيطر على كل شيء، بمعنى أنه يفسر الموجودات وتخضع له كل الموجودات. ويبدو أن هيراقليطس توصل الى فكرة اللوجوس العام هذا عن طريق التأمل على فكرة القانون البشري، ففيه يقول : " **الذين يتكلمون بالعقل يجب أن يتمسكوا بما هو مشترك للجميع، كما تتمسك المدينة بالقانون، بل وأشد لأن جميع القوانين البشرية مستمدة من قانون واحد الهي يحكم كل شيء كما يشاء ويكفى لكل شيء وهو مع هذا فوق كل شيء** ". هذا النص الهام يعنى عدة أشياء:

- أن هذا القانون العام أهم من القانون البشرى بل أن القانون البشرى مستمد منه
- أن اللوجوس قانون إلهي أي غير بشرى.
- أنه فوق كل البشر وفوق كل شيء.
- نه يكفى لكل شيء.
- أنه مشترك بين كل شيء.

إذا اللوجوس هو في نفس الوقت القانون العام للكون أو الفكر الإلهي، وأنه كذلك الفكر الانساني الذي يتحقق فيه هذا القانون العام ولكن الذين يصلون الى الوعى بهذا القانون قليلون فكما يقول هيراقليطس " **مع أن اللوجوس مشترك اذن فيمكن للجميع الوصول اليه، فمعظم الناس يعيشون وكأن لكل واحد منهم حكمته الخاصة و لا يفهم كثير من الناس هذه الأمور التي تقع عيونهم عليها، وهم لا يفهمونها حتى اذا تعلموها ، وإنما هم يظنون ذلك فقط** " فأول نقد يوجهه هيراقليطس للمعرفة العادية هو أنها تتوقف عند الجزئيات ولا ترتقى الى الجوهر الذي هو القانون العام. وينتج عن هذا، أي عن معرفة الجزئيات دون الجوهر، فالناس **لا يفهمون الكون، أي لا يعرفونه معرفة حقيقية بل يخبل إليهم ذلك**

فقط. ومن هنا كان هجوم هيراقليطس الشديد على " جامعي المعارف الكثيرة " مثل فيثاغورس وإكسينوفان فحتى اذا القانون العام. كانت المعارف الكثيرة هامة، فإنها يجب أن تكون مجرد وسيلة من أجل الوصول الى القانون العام، والوصول إلى القانون العام أي الى الحكمة الحقيقية الواحدة، ممكن للجميع لأن اللوجوس مشترك والمطلوب هو الحذر وعدم التسرع في الحكم، وتجاوز الظاهر الى الحقيقي، باختصار إعمال الفكر والتأمل القوى وليس إتباع السابقين: **" ماذا عندهم من عقل أو حكمة؟ إنهم يتبعون الشعراء ويقتدون بالجمهور** ". وعلى هذا الضوء نستطيع أن نفهم نصا هاما أوردة فيلسوف التغير موسوم ب: " بحثت بنفسي " والذي مفاده أن" **الفكر ينمى نفسه بنفسه"**

ثالثا: الأفكار الكبرى الناظمة لفلسفة هيراقليطس

هناك ثلاث أفكار كبرى في فلسفة هيراقليطس وهي على التوالي:

1/ فكرة الصراع: ومؤدى هذه الفكرة أن الصراع هو أساس الوجود، من قبيل، الذي يقول بأن النار تحيا بموت الأرض والهواء يحيا بموت النار، كما أنه اذا لم يوجد الظلم لكنا جهلنا حتى منا هو العدل. ولكن أهم النصوص الخاصة بهذا الجانب من فلسفة هيراقليطس نص يصرح فيه ا أن لحرب ملك كل شئ وأب كل شيء، وهي التي جعلت بعض الأشياء الها وبعضها الآخر بشرا وبعضها أحرارا وبعضها عبيدا. ويذكر هيراقليطس الحرب في أحد نصوصه مصرحا بقوله أنه يجب أن تعرف أن الحرب عامة لكل شيء وأن التنازع عدل، وأن جميع الأشياء تكون وتفسد بالتنازع، أي بالصراع بل إنه يقول إن الصراع هو الذي يسمح للعالم بأن يوجد وأن يستمر وهو يهاجم هوميروس قائلا:" لقد أخطأ هو ميروس في قوله " **لو أن التنازع زال من الآلهة والبشر .. ولكنه لم ينظر إلى أنه كان يدعو إلى هلاك العالم فلو**

استجيب دعاؤه لذهبت جميع الأشياء "، فيمكن القول إذن أن هيراقليطس هو فيلسوف الصراع.

2/ فكرة وحدة الأضداد: إن الصراع يكون بالطبع بين الأضداد. فالعالم مكون من أضداد: مرض وصحة وخير وشر وشبع وجوع وتعب وراحة، ولكنه المرض الذي يجعل الصحة ممتعة، والشر هو الذي ينتج الخير، والجموع هو الذي يرغب في الأكل والتعب هو الذي يرغب في الراحة، اذن فرغم وجود الأضداد إلا أن بينها نوعا من الوحدة. وهذه هي الفكرة الثانية الهيراقليطس، ولعلها فكرته الرئيسية، ألا وهي فكرة إتحاد الأضداد أو ائتلافها أو انسجامها . ويعبر عن هذا المعنى تشبيهان أحدهما مجده يقول فيه **أنه في محيط الدائرة يلتقي البدء والنهاية** ". والتشبيه الثاني حربي يقول فيه **القوس تسمى الحياة ولكن فعلها الموت** وتستطيع أن نفهم هذا النص على ضوء نص آخر هام جدا يقول فيه "**يجهل الناس كيف يكون الشيء مختلفا ومتفقا مع نفسه، فالائتلاف يقوم على الشد والجذب بين الأضداد كالحال في القوس والقيثارة** .. هذا النص الهام يتضمن أشياء عدة:

1/ الناس يجهلون الحقيقة الأساسية التي تقول إن الصراع هو أساس الوجود.

2/ بين هذه الأضداد يقوم، رغم هذا ونتيجة للصراع نفسه، ائتلاف.

3/ هذا الصراع وهذا الائتلاف لا يكون فقط بين الأشياء بعضها وبعض بل وكذلك في نفس الشيء الواحد.

هذا " التضاد الثاني " أي الذي يكون في الشيء الواحد نجد عليه أمثلة كثيرة في نصوص هيراقليطس ومنها النص القائل الطريق الى فوق وإلى أسفل واحد ونفس الطريق ونص آخر يقول فيه "**ماء البحر هو أنقى ماء وأعكره، يشربه السمك فيحيا به أما الانسان فإن**

شربه هلك "، ونص يصرح فيه أن **الإله هو النار والليل الشتاء والصيف الحرب والسلام الشبع والجوع، ولكنه يأخذ أشكالا مختلفة كالنار."**

وكما قلنا فان فوق هذا الصراع بين الأضداد هناك الوحدة الجوهرية العميقة، فما فينا هو شيء واحد ونفس الشي حياة وموت يقظة ونوم، صغر وكبر، فالأولى من الأضداد) تحول وتصبح الأخيرة والأخيرة تصبح الأولى وهيراقليطس يرى أن هذا هو الواقع ولكنه يرى كذلك أنه ما كان يجب أن يكون، أي أنه أيضا خير، وهناك نص الذي يقول: " **الضد هو الخير لنا** "، أي التوتر الذي ينشأ من وجود الأضداد خير لها جميعا.

3/ فكرة السيلان الدائم: التغير الدائم: ترتبط هذه الفكرة بفكرة الصراع بين الأضداد، فالنار تحيا بموت الأرض والأشياء الباردة تصير حارة والحارة تصير باردة، ويجف الرطب ويصبح الجاف رطبا" فكل شيء في تغير دائم والتغير يتم من الضد الى الضد وأشهر وأهم نصوص هيراقليطس الخاصة بالسيلان العام للأشياء هو نص النهر: **إننا ننزل ولا ننزل الشهر الواحد، إننا تكون ولا تكون** " . ويشير هذا النص ليس الى التغير الدائم وحسب، بل وكذلك الى وجود مظهر وحقيقة، وأن المظهر هو الثبات أما الحقيقة فهي التغير الدائم. فهناك هكذا تغير دائم، ولكنه يخضع للقانون، حيث أنه ليس تغيرا في أي اتجاه، ومن جهة أخرى فان هناك شيئا ثابتا آخر الى جانب القانون أو اللوجوس هو النار، فليس هيراقليطس اذن فيلسوف التغير المطلق.